

بين الماضي والآتي

للاستاذ أديب عباسي

« وصلنا عدد (الرسالة) المائة والسادس والعشرون ، وقد انتهينا إلى جزء هذه المقالة الأخير . وكما كانت دهشة المفاجأة إذ فضضت غلاف الرسالة ووجدت بين مجوئها مقال الأستاذ الكبير أحمد أمين (أس وغداً) . وكانت بادرة الفكر التي تلت دهشة المفاجأة أن أمهل الموضوع وأوفر على نفسي عناء المراجعة والتفتيح . ولكنني عدت وقلت قد أكون طرقت الموضوع من ناحية غير التي طرقتها الأستاذ ، وقد أكون على خلاف معه في الرأي أو بعضه . وترأت المقال فوجدت أننا نسير والأستاذ بعض الطريق وتفرق في بعضه الآخر . ومن أجل هذا الاتفاق أبت بمقال هذا إلى (الرسالة) العزيزة »

تمر بزمرة من الشيوخ خلوا إلى أنفسهم وأرسلوا أحاديثهم إرسالاً لا تحده موضوعية البحث الجدي ، ولا اندفاع العاطفة الثائرة ، ولا عصبية الجدل ؛ فتكاد لا تحس في حديثهم إلا اللفظة العميقة ، والاتباع الشديد على الزمن الفائت ، حيث اللذة لا يكدرها ألم ، والصفو لا يرتقه كدر ، وحيث النعيم أبدأ مقيم ، والمنى أبدأ حُفَّس دانية ؛ وينبث إليك من صدق الحجّة واجتماع الرأي وخلوص النية في حديثهم ما يوحى بأن أعصر السعادة المطلقة قد تلكأت عند شبابهم ، وترخصت فقط لماضيهم ، فأقامت ثم لا تبرح ولا تريم ؛ لهذا أحفل الحاضر ، وعقم المستقبل ، وغادر الناس طيب العيش وبشاشة الأمل ؛

تسمع هذا وخلافه مما تفيض به بقايا العمر وأعقاب السنين من الشيخوخة ، فتندسس إليك الحسرة ويفمرك الأمل ان تأخر بك الزمن ، ولم يحشرك في زمرة الشيوخ هذه ، ويجملك في

بالإنجاء نحو الله كما رأى ذلك رينان Renan

عرضنا في تلك الكلمة الموجزة نشوء بعض تطورات الدين بأوروبا ، مما يدعونا إلى الاعتقاد أن هناك عوامل أخرى أدت إلى تلك الاختلافات الطائفية غفل عنها رجال الدين والفلاسفة ، وهي التي دعت علماء الاجتماع للتعبير عنها بطريقة أخرى غير ما سبق . وذلك موضوع كلتنا القادمة

(باريس)

محمد مهدي
بجامعة باريس

حشدهم ، فيكون لك من السعادة مثل ما يتحدثون ويصفون وتقودك رجلاك من حيث أنت إلى زمر أخرى وأفراد آخرين ، بعضهم ما يزال - في رأي نفسه - يستعدّ لخوض معركة الحياة ، وبعضهم الآخر - كذلك في رأي نفسه - قد أعدّ لها المدّة ، وهياً السلاح ، فهو الآن يخوض غمارها ليصطلي بنارها ، أو يستاف العطر الذكي عن أزهارها

وتقف تتسمع ، فما يروعك من هذه الزمر مثل انشغالها باستقبالها عن حاضرها ، وغفلتها عما في اليد إلى ما عتبتها به الغد ، كأن حياة اليوم ليست في العمر ولا في تقدير الزمن ، ويعضون هذا المضي ، النفلة عن حاضر الحياة غريبة مدهشة ، والثقة في المستقبل قوية آسرة ، وبطل هذا دأبهم إلى أن يؤذّن بركود الشباب ، ووشك الانخراط في سلك الشيخوخة التهدمة . عندها

- وعندها فقط - يصحون ، ولكن لات ساعة صحو

وهنا ينقلب الوضع وينكفي الأبحاء ، فتجمل الذكرى القريبة أو البعيدة محل المزم ، والركود محل النشاط ، والمعجز محل القدرة ، وهكذا بين ماضي الحياة وآتها ، يسقط الناس كل رصيدهم فيها ، ويجعلون منها - على حد تعبير الرياضيين - السكبة المهمة

ولست هذه الصور التي رسمنا بالصور الخاصة أو الطارئة طروداً زائلاً ، إنما هي صور لها من طبيعة الشعور وخصائص الاحساس ما يجعلها من أزم الصور للحياة وأكثرها لصوقاً بها وشيوعاً فيها . فالشيخ ، أو من كان في حكمه من شبان السنين ، يتسجّه إلى الماضي ليلطف عنده مرارة الحاضر ، وليتعوض بذكره عما يفوته العجز وضعف السنّة من لذائذ راهنة براها ولا يرى السبيل إليها كيف يكون . وقد تقول : لم يؤثر الشيخ أن يرتد بخياله إلى ماضي العمر ولا يرى أن يرسله في مطاوي المستقبل ليلتمس عنده الفرار وينشد السلوان ؟ والجواب سهل هين إذا علمنا أن خيال الشيخ يخونه هنا ، كما يخونه كذلك منطلق الواقع ومنطق الاحتمال . فالشيخ يدرك أن سبيله من بقية العمر هي سبيل نازلة لا صاعدة ، وأن كل يوم يمضي يدينه من النهاية ويقص لديه بقايا الأمل وأصداء السعادة ؛ وإذا فالحاضر فسحة مسدودة ، والآتي سبيل مظلم مخيف ؛ أما الماضي فهو السبيل الوحيد الذي يستطيع أن ينسب فيه الخيال دون أن يشله برد الواقع أو تروّعه بشاعة الحاضر

في حياة الجماعات منها في حياة الأفراد . ومن هنا أن الأمم
أهمل حاضرها وازداد تخلفها عن غيرها من الأمم ازدادت حفا
بالماضى وتقطناً اليه وعكروفاً عليه . ولعل عبادة السلف عند
الشعوب ترجع في معظم الأمر إلى هذا الميل النفسى العميق

ونعود إلى صورة الشعور كما يرسمها طمّاح الشباب ويمجد
أمله ، فتجد أن الشاب إذ يتجه في أمانيه وأخيلته وعمله
المستقبل ، إنما يجرى على طبيعة الشعور ويعوجب قواعده . فالطام
لدى الشاب الذى لم يحدد الضمف وقصر المجال وضيق المضطر
أمله فيه وحدود مسماه ، هو مرقاة منها يرقى إلى غيرها .
فحاضر الحياة من الشاب هو الدرب ، والمستقبل الافق ، ما
متجدداً مغرباً بالسمى والسير ما بقيت في النفس حوافز الد
والسير . ثم ان حاضر الحياة مزيج من الخير والشر واللذة وا
والنجاح والفشل . أما آتيها فهو كما يرسمه الخيال ويحدده الأمر
خير ونعيم ونجاح . أما الماضى فقد كان يكون من خياله ما يك
من خيال الشيخ لولا أن صورة المستقبل صورة قوية رائمة لا
للتفكير في الماضى الا ما يدعه القوى للضعيف . وعلى كل
ترى من الشباب من ينزوى عن مستقبله ويتجه الى ماضيه
إن يكن له ماض ، فعل الشيوخ الذين قادروهم الأمل وأحلمهم الك
هـذا تحليل مجمل لصور الشعور في ثلاثة أطوار الحياة و
أزمنتها الثلاثة ، لا نعتقد أننا نتحكم فيه أو نفرسه فرضاً
القارىء ، لا سيما إذا أزلنا من الصورة جانبي المبالغة والاغرض
من تفاؤل رخيص يجمل الحياة ابتساماً طويلة كاذبة ، وتشا
هبوس دائم التقطيب ، كما يتمثلان في حياة نفر من الناس
شأنهم الحقيق من الحياة شأن الهامش من الصحيفة ، فيم
وليسوا فيها

نما وصفنا ترى جلياً ان حاضر الحياة - وهو كل حقنا فيها
لا ينال من فطنة الشعور إلا قدرأ ضئيلاً طاراً إذا قيس بما
أخيلتنا ويكظها من صور الماضى والآتى

وقد تقول : ماذا علينا - إذا كان هذا هو الحال - لتخله
الحياة من هذا العبث الذى يضيع فيه العمر بين لفحة على الماضى
وغفلة عن الحاضر واستشراف للمستقبل ؟ وجوابنا ان من طبي

وقد تسأل : ألم يكن في ماضى الشيخ الألم كاللذة ، والنعيم
كالشقاء ، والحرمات كالآلآلة ؟ فكيف يؤثر أن يعيش في ماضيه دون
حاضره وآتيه ؟ وهنا ترجع إلى حقائق الشعور الراهنة ، فيستبين
لنا أن الألم الفاتت يفقد قيمته مع الزمن حتى لا يبقى منه إلا ذكره
وصداه . وهذه الذكرى - إذا لم يصحب أسباب الألم عند نشوئه
حالات ملازمة - تضحى باعتبارها على الاطمئنان والراحة . فأنت إذ
تفقد كل ما تملك أو تصاب إصابة جائرة في سمعتك أو تجلس إلى
حبيب إليك علمقه المرض بين فكى الفناء والبقاء ، تشر بالذبطة
وانفراج الشعور بزوال الخطر ، حينما يعوض عليك السمي بدلاً
من مالك ، وحينما يرد إليك الوضع المادل سمعتك ، وحينما يتخطى
غول الفناء حبيبك فيرده إليك سليماً معافى تنم ببقائه نعمتك
بكل عزيز عليك . وعليه فتلك الأحداث التى كانت يوماً ناراً يقلب
عليها الاحساس ويضرم الشعور أضحمت بعد زوالها مجلبة للراحة
والاطمئنان ، فلا عجب إذا من ارتداد الخيال إلى الماضى
وعكوفه عليه

بيد أننا لا ننكر أن نمة عللاً أخرى غير ما أسلفنا لهذا
المكوف من الشيخ على ماضيه وانصرافه اليه عن آتيه وحاضره :
منها أن الشيخ إذ يرتد إلى ماضيه يُسِير الشعور في مسارب
أضحمت بتكرار الحدوث ممهدة لا تعترضه فيها عقبة ولا تتصدى
له هثرة . ومن هنا فكرة « المراضى السמיד » عند الشيوخ ، ومن
هنا أيضاً ميلهم الميل الشديد إلى المحافظة وإبقاء القديم على قدمه
وتجنب كل جديد يصدم الشعور ويدعو إلى تحويله من مجراه المتداد
ومن هذه الطل أيضاً ذهاب الرقة وتخطف الموت أبناء
الجيل الواحد ، بحيث يجيء اليوم الذى يشمر فيه الشيخ انه
غريب في بيئة غريبة ، فيزداد حنينه إلى ذلك الرهط الذاهب
من جيله ، فيستعيد بخياله ذكراهم المحببة وأيامه وأيامهم الحافلة
بضاف إلى هذا لون معهود من ألوان الدفاع عن النفس
بتهوين الحرمان عليها وطلب المزاء لها عنه في الماضى ؛ وهو نوع
من أنواع تخدير الاحساس بنشأ أول الأمر في دائرة الوعى ،
ولكنه مع الزمن وتوالى الحدوث والتأثير يتسرب إلى دائرة
العقل الباطن ويتخفى في تيه اللاشعور . وعندها يصدر ذم الحاضر
عن عقيدة وينطلق عن يقين . وهذه الظاهرة تبدو أجلى وأوضح

نفسه موقف المحاسبة والتحليل الدقيق للأوضاع التي تسوقه إليها ماجريات الحياة . بذلك يكتسب ثقة في النفس وتقديراً عادلاً للأوضاع ، يربحها من خصومة النفس وغربة الوضع وغرابة الاحساس ...

ومن واجب البيت والمدرسة - كذلك - أن يعناد الصغار تقدير آلام الغير ويسـتـيقنوا أن الناس يتألمون كما هم يتألمون ، وأن ما نشاهده من ظواهر السعادة عندهم هو في أغلب الأحيان دون ما نقدر ونتوهم

ومن أول واجبات البيت والمدرسة أن ينشئ الصغار على التفطن إلى جميع مظاهر الجمال وتذوقه في الطبيعة والحياة والفن ، فان في ذلك توسيعاً لمدى اللذة وتقليباً لأسباب السعادة على أسباب الشقاء

وأخيراً يجب على البيت والمدرسة أن يفهما أن عملية التربية ليست إعداد الزملاء للحياة كما تنص نظم التربية القديمة ، إنما هي - كما يقول جون ديوي - فيلسوف النزعة الحديثة في التربية : « الحياة » بذاتها ما ؟ أرب عباس

إذ أن يتأرجح فيها الخير والشر وتساير اللذة الألم ، وأنه يستحيل يكون الحياة خيراً كلها أو شراً كلها ، وأنه لهذا أنحن واجباً ويقبل عليها الناس اقبالاً لا يفتيهم ما يتيسر لهم من نعيمها ، ايفيتهم - كذلك - النظر إلى المستقبل والسعي في سبيله ؛ وإن ص نظر الناس إلى المستقبل من استمتاعهم بلذات الحاضر إذا فوا كيف يحسنون السير في سبيله سيراً ممتدلاً حتى لا يضحى غلظة لهم ترحم حاضر الحياة على نصيبها الذي يجب أن يكون امن وعى الشعور ، بل نحن نعتقد أن المرء يقيس له من سعادة واقع ، مع السعي السليم والتطلع إلى المستقبل الذي لا يقطع المرء في حياته الحاضرة ، أكثر مما يقيس له حينها يقطع عن ماضيه أنه ليكب على الحاضر وحده يرضع فيه اللذة ويتشرف النعيم ل الطريقة الحياتية

وهذه الحالة السليمة من الشعور لا تحل حلاً مفاجئاً ، كما يحل الوحي ، ولا تجي بالسمي الهين أو المعتدل ، إنما هي حالة تقتضى السعي الأكيد ، والتعاون الشديد ، من جميع مصادر لتوجيه النفس . ولعل البيت والمدرسة يفوقان في هذا الشأن جميع مصادر التوجيه الأخرى في طول مدى التأثير وعمقه ، البيت والمدرسة يستطيعان أن ينشئ الجيل الذي لا يقتله الفشل ويرتد إلى الماضي يحدّر فيه الشعور ، ولا يستخفه النجاح ، فيستعبده المستقبل ويستذله . ويكون ذلك بأن يتعاون البيت والمدرسة على تمويد الطفل بالتلقين والايحاء تأتي مؤثرات الحياة برحابة في الصدر ، وتوطن للنفس على خير الحياة وشرها على السواء

ويساعد على تكوين هذه الحالة السليمة من التصور مثل التربية الاستقلالية التي يرباها أبناء الأمم السكسونية ، حيث يتخذ الألم معنى الواقع الذي لا بد منه ، واللذة معنى الخير يجي بالسمي ، فلا بد من تذوقه واستمتاعه إلى أقصى حدود الاستمتاع ويجب كذلك أن يتعاون البيت والمدرسة تعاوناً حكماً في الحد من أنانية الصغار الصارخة ، وإفهامهم أن فرص النجاح ليست وفقاً عليهم وحدهم ، وأن غيرهم لهم من حق النجاح مثل حقهم ؛ فلا تمنى حياتهم آمالاً غيبية ، وآلاماً موصولة كذلك على المدرسة والبيت أن يموّدا النائم كيف يقف من حوادث الحياة موقف الحياد والاستقلال في التقدير ، ومن

لجنة التأليف والترجمة والنشر

السالكي

في شرح أمالي القالي

لأبي عبد البكري

أتمت لجنة التأليف. طبع هذا الكتاب الجليل وقد وقف عليه الأستاذ عبد العزيز اليميني أستاذ الأدب العربي بليكره وعنى بضبطه والتعليق عليه والكتاب يقع في نحو ١١٥٠ صفحة من القطع الكبير في ثلاثة أجزاء مضبوطة أعلامه وأبيانه وغريبه بالضبط الكامل

ونعنه سبعون قرشاً صافياً عدا أجرة البريد
ويطلب من اللجنة ومن الكاتب الشهيرة